جمال عبد الملك

القبو ....

نقولا يغش الخمور .. نقولا يغوي النساء .. نقولا يوظف نقوده في الربا .. نقولا لعنة البلد .. في البلدة الافريقية كان (بار نقولا) هو مكان لقاء الموظفين والتجار وحوله تتسكع البنات السمراوات في ملابس لامعة لا تناسبهن ..

نقولا كان يتمتع بانف كبير حساس ، وفي حفل رأس السنة في ليلة باردة قال رجل افريقي بدين لنقولا في حديث مخمور ..

« ـ اسمع يا خواجة .. نحن لم ننس قط انك اجنبي ، وانك حضرت لبلادنا تحمل صرة صغيرة فيها فرشاة اسنان وتمباك ولكنك الان رجل ثري عندك بيت ودكان وقد كونت ثروتك من افساد بناتنا واولادنا .. »

نقولا لم يكن غبيا . كان عنده بالفعل نقود وفيرة .. وكان رجلا وحيدا يعاني من مرض انكبد .. وقد حاول ان يهرب مبلغا من مدخراته للخارج ولكن الوسيط اكل المبلغ ولم يجرؤ نقولا على الشكوى .

نقولا كان يفكر كثيرا في المستقبل .. ولم يكن ثمة مكان على ظهر الارض يؤويه بلا نقود .. وقد شعر الان بدبيب الشيخوخه يسري في عظامه .. وماذا يفعل رجل وحيد مثله مريض بالكبد .. في عالم صار مثل ثقب الابرة .. واين يبدأ من جديد ؟ لو كان شابا قويا لاختلف الامر ولكن الان ؟..

كان في الماضي فحلا وكان يعشق النساء الفاحمات السواد ذوات الارداف .. وقد عاشر كثيرات ولكنه لم يتزوج ايا منهن .. ربما كانت (بالوما) هي صاحبته المفضلة وقد رافقته اعواما عديدة وجعلت لنفسها حقوقا عليه واكتسبت وضع الزوجة ، خاصة بعد ان انجبت لنقولا ولدا ، ولكنها اختفت من حياته فجاة .. وقيل انها هربت هي وولدها مع احد الجنود المرتزقة ..

كثر الغرباء الذين يتوافدون على سوق البلدة ، فالحدود قريبة، والجو كان مشحونا بالتوتر ، وكان نقولا يحس بمقدم الانفجار المرتقب كما تحس الحيوانات بمقدم السيول والزلازل .. من معرفته بالبلاد واهلها .. مما كان يسمع من ثرثرة رواد البار . بل من اقاويل البنات اللواتي كان يتولى بنفسه تنظيفهن في البانيو ، كان يعلم بعصر احشائه ان العاصفة تقترب .. وكان يسمع هسيس الثورة في قمم الاشجار ويرتعد .. ولم يعد سرا ان العصر الذهبي للحكم الاوروبي قارب على الزوال ..

الصبية صاروا يطاردونه في السوق بصيحات منغمة قائلين :

« تسافر ولا تعود » .. وكان واثقا ان هناك من يحرضونهم والعجائز صرن يبصقن في الارض عندما يمر بهن .. واشترى مسدسا ولكنه بعد امعان الفكر باعه لصاحب المحل المجاور مقابل ربح صغير..

وبات يسهر الليل يفكر في طريقة للبقاء او الجلاء دون ان يجازف بروحه او بفقد ثروته .. وفي ليلة عاصفة فرقع فيها الرعد وولولت الرياح الممطرة قام فزعا من غفوته على صوت طرقات قوية فوق نافذته .. وسقط الضوء على ملامح رجل داكن البشرة يقطر ماء ويترنح اعياء ... ادخله نقولا الى بيته وقدم له طعاما ونبيذا وحبوبا مضادة للملاريا فقد كان الرجل يعاني من الحمى الراجعة .. وقضى الرجل يومين طريح الفراش ولما استرد عافيته طلب من نقولا ان يضعه في شاحنة لتنقله عبر الحدود .. ودس في يده شيئا .. قارورة صغيرة وحفنة من البلاستيك وورقة فيها طريقة الاستعمال .. قال الرجل الغريب لنقولا :

« ربما تحتاج اليها .. انها اختراع امريكاني .. لقد ابتكروا هذا العقار الذي يجعل الابيض اسود وقد غيرت بشرتي لاندس وسط السود واتجسس عليهم خذها .. ولا تنسى ان تضعها في مكان بارد » .

ساله نقولا : « الم يخترعوا دواء يجعل الاسود ابيض ؟» قال : « كلا » .. وذهب عبر الحدود .

وضع نقولا في القبو حيث يعتق الخمور الجيدة ويعبيء الرخيصة طعاما محفوظا ومراة وحفظ في الثلاجة العقار السحري والحقنة وادوات التعقيم واعد بطاقة هوية واوراقا اخرى .. وانتظر ..صار ينام الان ملء جفنيه ولا يكترث لاستفزازات الصغار والكبار ..

وذات صباح دافيء سمع صياحا وهرولة وطلقات رصاص وابواق سيارات مسرعة .. فادرك ان هذه هي اللحظة الحاسمة .. اغلق البار بهدوء .. ونزل الى القبو ..

نقولا ذهب الى غير رجعة ، وظهر في مكانه هيبالد توشكي. لونه اسمر وشعره مجعد وهو اكثر وسامة ووقارا من نقولا .. وان ظل وجهه يحمل عيني نقولا الصفراوين وانفه الكبير .. في الفجر خرج من السرداب المتصل بالقبو وسار بحذر عبر الممرات المعتمة التي يعرفها المهربون جيدا وقبع في الدغل .. وفي الصباح دخل البلدة بخطوات ثابتة .. ولم يلتفت اليه احد وهو يفتح ابواب البار ويجلس خلف الطاولة .. وجاء شاب يركب دراجة فاشترى زجاجتي بيرة وانصرف.

وساله احدهم عن نقولا فقال « لقد سافر ..» ولم يزد .

ومر النهار بلا حادث ، ولكن في المساء بينما كان يفتح الخزانة

ويراجع الحسابات اطل عليه وجه صاحب الدكان المجاور له .. سأله والشك يلوح في عينيه :

ـ « اين نقولا ؟ »

قال : « نقولا سافر وانا اشتريت البار والبيت وهو لن يعود ..»

قال التاجر وعيناه تلمعان : « لا بد انك اشتريته بثمن بخس ..»

ورد هيبالد توشكي :

« لقداشتريته بسعر مناسب ونقولا كان يعتقد ان الحكم الوطني سيطرد الاجانب ويمنع الخمور ..»

ضحك التاجر حتى بانت اسنانه الصفراء وقال :

ـ « نقولا كان خائفا .. والرجل الخائف لا يحسن التفكير والتدبير .. لو حدثني برغبته في السفر لاعطيته سعرا مجزيا ،ولكن يبدو انك ابرمت صفقة طيبة ، مبروك عليك ..».

طارت اخبار سفر نقولا في البلدة .. واجتمع الشبان في البار الذي صار اسمه الان « البار الوطني » وعندما سكروا اشتد بينهم الجدل والنقاش .. لو بقي نقولا لما مسه احد بسوء ، قالها رجل اسود بدين وهو يقلب الصحيفة اليومية .. ولكن الشبان اكدوا ان نقولا كان يستحق العقاب ، معاملته للنساء وحدها تثير الاشمئزاز.. وتطوع احدهم فقال انه كان يعلم ان نقولا سوف يهاجر الى استراليا وذكر اخر بلهجة المطلع ان نقولا كان قد تلقى خطابا من صاحبته (بالوما) التي صارت نجمة سينمائية في داكار وقد ارسلت اليه ليكون مديرا لاعمالها .. والطالب النحيل ذو العوينات صرح بان نقولا كان عميلا للامبريالية ولولا شعوره بالذنب لما هرب .. وفي النهاية صاح توشكي بصوت اذهل الحاضرين لانه كان يشبه صوت نقولا معلنا ان كل طلباتهم الليلة على حساب المحل فتعالت هتافاتهم بحياة صاحب البار الوطني .

لم يكن توشكي يظن ان نقولا يحظى بكل هذا القدر من العطف.. ولكن الناس يذكرون محاسن موتاهم .. من يدري ماذا كان يحدث لو بقي ؟..

في الصباح زاره الضابط المقيم وصفق بيديه فجاء اليه هيبالد توشكي ووقف امامه منحنيا قليلا .. ولم تكن هذه من عادات نقولا .. تأمله الضابط طويلا ثم سأله في لهجة استجوابية عن اسمه ..ومكان ميلاده .. واوراق هويته وفحصها فوجدها مستوفاة .. لقد اعد نقولا كل شيء ، نظر الضابط في جوف عينيه ثم قال له :

ـ « اشعر اننا التقينا من قبل » .. احضر له توشكي كأس الوسكي وقال له : هذا على حساب المحل ..ولكن الضابط قذف بالنقود على الطاولة وطلب نصف زجاجة ليحملها معه ..

في المساء دقت (جاكي) النافذة ففتح لها توشكي قالت له :«انت مثله تماما في الظلام ...»

قال : « في الظلام كلنا سواء » .

انزلقت من فرجة الباب وذهبت مباشرة الى الدولاب واخرجت الباروكة .. ووضعت الشعر المستعار على راسها ، ولبست قميص النوم الاحمر البرلون .. ووقفت امام المرآة بصدرها الابنوسي الكبير .. ثم التفتت اليه وقالت :

ـ « هكذا كان يريدني المرحوم .. ان اكون مثل نسائهم » ..

ابتسمت وهي تضيف :

ـ « المرحوم نقولا .. لقد قتلته بلا ريب ؟ اليس كذلك ؟

ثم ذهبت تعد المائدة ..

هز توشكي رأسه وسألها : « كيف كان يعاملك ؟ »

قالت : « لم يكن كريما .. ومرة كاد يقتلني عندما خرجت من عنده لابسة (الباروكة) .. انه يحتفظ بها لمزاجه الخاص .. رفض ان يؤجرها لي .. ولكن ربما يدخل التاريخ لانه علمني وبنات اخريات كيف نصنع الجبن من اللبن الحليب !!» .

مرة اخرى شعر أن نقولا لم يكن موقفه رديئا تماما .. ولكن من يدري ماذا يمكن ان يحدث في الازمات ؟ وهو لم يفقد شيئا سوى لونه وهو على اي حال لم يكن في وقت ما ناصع البياض .. الشجرة التي امام البار ما زالت شجرة نقولا بل ان بعضهم عندما يفرطون في الشراب ـ كانوا ينادون صاحب البار باسم نقولا بلاك او نقولا نيرو او نقولا الاسود ! وبعد قليل لم يعد احد يستعمل اسم هيبالد توشكي .

وذات ظهيرة .. والشارع يكاد يخلو من المارة والاعلام الجديدة ترفرف مزهوة في الهواء المترب تحت شمس ساطعة .. كان الجندي الذي يحرس المركز يتثاءب .. وتوشكي او نقولا الاسود ينعس وراء الطاولة خلف الباب الموارب .. عندما اقتحم عليه خلوته شاب نحاسي البشرة فارع الطول يرتدي قميصا مزركشا وبنطلون (كاوبوي) ازرق وقد ارخى سوالفه .. طلب زجاجة بيرة تناولها وهو يتفرس في توشكي ،ثم قال باستفزاز ، « ـ انها ساخنة ـ اريدها باردة ..»

واحضر توشكي زجاجة اخرى ..حدجه الشاب بنظرة نارية وهو يقول :

« ـ لي حديث معك .. »

واذا به يدفع الباب الصغير الذي يفصل بين الطاونة والجدار ويندفع لداخل المحل .. قال الفتى :

ـ « انت لا تعرفني .. ولكني اريد ان اسألك ماذا حدث لابي؟»

قال توشكي وقد شعر لاول مرة بالخوف :

« ـ ابوك ؟ من ؟! »

ـ « ابي نقولا .. انا سامي ولد نقولا ..»

هذه بلا شك عيون بالوما الرائعة ، لقد كبر سامي وصار فتى وسيما .. دمعت عينا توشكي .. ومد يده ليعانق ابنه ولكن الفتى تراجع وامسك زجاجة البيرة من عنقها متوعدا وصاح :

ـ « سوف احطمها على رأسك أيها الوغد .. ماذا فعلت بأبي ؟»

واسترد توشكي انفاسه وقال بهدوء :

« ـ لا شيء .. لقد باع المحل وسافر . لقد حدثني عنك واوصاني ان اعطيك بعض المال .. كيف حال والدتك ؟»

قال الفتى مكشرا :

ـ « لا شان لك بأمي .. اريد ان اعرف اين اجد ابي .. لقد اظهرت صورته للناس في السوق فلم يعرفوا مكانه ..»

نظر توشكي الى الصورة .. هذا نقولا قبل ان ينلف كبده ... عندما كان يحمل برميل النبيذ بمفرده الى القبو .. قال لسامي :

ـ « لو كان معك النيقاتيف لعثرت عليه ..»

دفعه الولد في صدره وهو يصيح :

« ـ لقد عدت لاحصل على ميراثي .. أنت لص .. تريد ان تخدعني .. » ولكن توشكي رد بهدوء :

« ـ ولكنك لم تكن ابنا شرعيا لنقولا ومع ذلك يمكننا أن نتفاهم..»

تهيج الفتى وهجم على توشكي والقاه ارضا .. وسقطت زجاجة البيرة والكوب وجاء الجندي على صوت الصراخ والتكسير وتجمع اهل السوق وامسكوا سامي وربطوه بالحبال وقادوه الى المركز .

قال توشكي للضابط « الفتى افرط في الشراب وانا عفوت عنه ..» وارسل اليه طعاما مع الحارس وطلب من الضابط ان يترفق به .. والتجار قالوا :

ـ « يا له من شهم نبيل توشكي هذا يحسن الى اساء اليه ؟!»

واكراما لخاطره طرد الضابط الفتى سامي من البلدة ولم يقدمه للمحاكمة .. واختار الاهالي هيبالد توشكي ليكون عضوا في المجلس البلدي ..